﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١١٧﴾ [التَّوبة: 117]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

أنّه لمّا ذكرَ في ختامِ الآيةِ السّابقةِ أنّه سُبحانُه هو وليُّهم وناصرُهم؛ ذكرَ في هذه الآيةِ الدّليلَ على ذلك بقولِه: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ الآية، فاللّه الذي له الجلالُ والإكرامُ تزدادُ ولايتُه ونُصرتُه للرّسولِ ﷺ وللمؤمنين برفْعِ درجاتِهم، فما مِن مَقامٍ يرتقُون فيه إلّا ودلَّهُم عليه[1].

ومنَ المناسبةِ أيضًا أنّه لَمَّا تقدَّمَ الكلامُ في أحوالِ المُنافقينَ مِن تَخَلُّفِهم عن غزوةِ تَبوكَ، واستطرَدَ إلى تقسيمِ المُنافقينَ إلى أعرابٍ وغَيرِهم، وذكَرَ ما فعلُوا مِن مَسجِدِ الضِّرارِ، وذكَرَ مُبايعةَ المؤمنينَ اللّهَ في الجِهادِ وأثنَى عليهم، وأنَّه ينبغي أن يُباينُوا المُشركينَ، حتَّى الذين ماتُوا منهم بتَرْكِ الاستغفارِ لهم عادَ إلى ذِكْرِ ما بَقِيَ مِن أحوالِ غَزوةِ تَبوكَ[2]، فهذه الآياتُ تَتِمَّةُ ما تقدَّمَ مِن موضوعِ تَوبةِ المتخَلِّفينَ عن غزوةِ تَبُوكَ، أُخِّرَت على سُنَّةِ القرآنِ في تفريقِ الآياتِ في الموضوعِ الواحِدِ، لأنَّه أدْنى ألَّا يَسأَمَ التَّالي لها في الصَّلاةِ وغَيرِها، وأقوَى في تجديدِ الذِّكرى، والتّأثيرِ في النَّفسِ[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡعُسۡرَةِ﴾: العُسْرَةُ: قِلَّةُ ذاتِ اليَدِ، والعُسْرُ: نَقيضُ اليُسْرِ، وأَصْلُ (عُسْرٍ) يَدُلُّ عَلَى صُعُوبَةٍ وَشِدَّةٍ، والعُسْرَةُ: تَعَسُّرُ وُجودِ المالِ، والعُسْرَة والمَعْسَرَة: خِلافُ المَيْسَرَة، وأَعْسَرَ الرَّجُلُ إِعْسارًا، إذا افْتَقَرَ[4]، والمعنى هنا: في ساعَةِ العُسْرَةِ، أي: وقتِها، وهي شدّةُ حالِهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 3/396.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/516.
(3) محمد رضا، تفسير المنار: 11/52.
(4) الخليل، العَيْن: (ع س ر)، وابن دُريد، جمهرةُ اللُّغة: (رسع)، وابنُ فارس، مقاييسُ اللُّغة، والزّبيديُّ، تاجُ العروس، والرّاغب: المُفرداتُ: (عسر).

في غزوة تبوك من عُسرةِ الظَّهرِ والزّادِ والماءِ حيث كان الرَّجلان يَقتسمان تمرةً، والعشرةُ يَعتقبون البعيرَ الواحدَ، واشتدَّ الحَرُّ حتَّى شَربُوا الفَرْثَ[1].

2) ﴿يَزِيغُ﴾: أي: تَعدِلُ وتَميلُ عنِ الحَقِّ، وأصلُ (زيغ): يدلُّ على مَيلِ الشَّيءِ عنِ الاستقامةِ[2]، يُقَالُ: زَاغَ يزيغ زيغًا، والتَّزيُّغ: التَّمايُلُ، وقومٌ زاغةٌ، أي: زائغونَ، وزاغتِ الشَّمسُ، وذلك إذا مالتْ وفاءَ الفيءُ، والمَعْنَى هُنا: من بعد ما كادَ يميلُ قلوبُ بعضِهم عنِ الحقِّ، بالذي نالَه منَ المشقَّةِ والشِّدَّةِ في سفَرِه وغَزْوِهِ[3].

3) ﴿رَءُوفٌ﴾: أي: شديدُ الرَّحمةِ، أو ذو رحمةٍ واسعةٍ، ورءوف من صِيغِ المبالغة (فعولٌ) بمعنى فاعلٌ؛ أي: كثير الرّأفةِ، والرّأفةُ أشدُّ الرّحمةِ أو أرَقُّها[4]، وفعلُه رَؤُفَ به ورَأَفَ ورَئِفَ؛ أي ثلاثيّة الهمزة بضمّ الهمزة وفتحها وكسرها، وكلّه من كلام العرب[5]، وأصلُ (رأف): يدلُّ على رِقَّةٍ ورَحمةٍ[6].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لُطْفُ الله تعالى بعبَادِهِ وتَوفيقُه لهم

بيّنتْ هذه الآيةُ توفيقَ اللّه لنَبيِّه محمَّدٍ ﷺ إلى الإنابةِ إليه وطاعتِه، وتابَ اللّه على المهاجرين الذين هجَرُوا ديارَهم وعشيرتَهم إلى دار الإسلام، وعلى الأنصارِ الذين لم يَتَخَلَّفُوا عنه، بلِ اتَّبعوه في غزوةِ تبوكَ مع شِدَّة الحرِّ وقِلَّةِ ذاتِ اليد وقوَّةِ الأعداءِ، لقد تاب اللّه عليهم من بعدَ بعدِ ما كادَ يَميلُ قلوبُ بعضِهم عنِ الحقِّ، فيَميلُون

(1) القرطبيُّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/279، والغزنويُّ، باهر البرهان: 1/623، والصَّاوي، حاشية الصَّاوي على الجلالَيْن: 2/77.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 193، وابن جرير، جامع البيان: 12/49، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (زيغ)، وابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 148، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 229.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 14/539.
(4) الفيروزآبادى، القاموس المحيط: (رأف).
(5) الشّيخليّ، بلاغة القرآن الكريم: 1/430.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 3/595، والسِّجستاني، غريب القرآن، ص: 235، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رأف)، وابن الهائم، التِّبيان، ص: 114.

إلى الدَّعةِ والسُّكونِ، لِما هُمَّ فيه منَ الشِّدَّةِ العظيمةِ، ثُمَّ غَفَرَ اللّه لهم هذا الهَمَّ الذي خَطَرَ بنفوسِهم ووفّقَهُم للثَّبات والخروجِ إلى الغزو، إنَّه سُبحانَه كثيرُ الرَّأفةِ بهم، عظيمُ الرَّحمةِ، ومن رحمتِه توفيقُهم للتَّوبةِ وقَبولُها منهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ فصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾، لأنّها جملةٌ استئنافيّةٌ ابتدائيّةُ الغرَضُ منها الانتقالُ منَ التَّحريضِ على الجهادِ والتَّحذيرِ منَ التَّقاعُسِ والتَّوبيخِ على التَّخلُّفِ عنه إلى بيانِ فضيلةِ الذين انتُدِبُوا للغزوِ واقتحمُوا شدائِدَه.

ثناءُ الله على الذين دُعُوا للغزْوِ واقتحمُوا شدائِدَه

دلالةُ اللَّامِ في: ﴿لَّقَد﴾:

اللَّامُ في ﴿لَّقَد﴾ هي اللَّامُ الواقعةُ، في جواب قسَمٍ مُقَدَّرٍ، وهذا القسَمُ لتوكيدِ التَّوبةِ، ووقوعِها وقُوعًا تامًّا كاملًا، لم يبقَ معها ذنْبٌ، أو معصيةٌ، فهي توبةٌ يخرجُ بعدَها مَنْ وقعتْ عليه مُعافًى من كلِّ سُوءٍ، مُبَرَّأً من كُلِّ مَأْخَذٍ[2].

تَوكيدُ التَّوبةِ، وتَحَقُّقُ وقوعِها وقُوعًا تامًّا كاملًا

نُكتةُ دخولِ (قد) علَى الفِعْلِ الماضِي:

افتتحَ النَّظمُ الكريمُ الكلامَ بحرفِ التَّحقيقِ تأكيدًا لمضمونِ الكلامِ الواردِ في هذه الآيةِ وهو توبةُ اللّه على رسولِه وصحْبِه الكرامِ منَ المهاجرين والأنصارِ، وفيه بِشارةٌ برضَى اللّه على رسولِه وعلى المؤمنين الذين كانوا معه في غزوة تبوك[3].

تأكيدُ مضمونِ الجُملةِ المُؤْذِنِ بِبِشارةِ النَّبيِّ والمؤمنين كُلٌّ بحسَبِ حالِه

دلالةُ التَّعبيرِ بالفِعْلِ الماضِي ﴿تَّابَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ﴾:

آثرَ التَّعبيرَ بالفِعْلِ الماضِي ﴿تَّابَ﴾، للدّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ

للدّلالةِ علَى تحقُّقِ وُقوعِ التَّوبَةِ

(1) لجنة من عُلماءِ الأزهر، المنتخَبُ في تفسير القرآنِ الكريم، ص: 281، ونُخْبة من أساتذة التَّفسير، التَّفسير المُيَسَّر، ص: 205، وجماعَةٌ من علماء التَّفسير، المُخْتَصَر في تفسير القرآن الكريم، ص: 205.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيُّ: 6/909.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتنوير: 11/49.

التَّوبةِ، وأنّها أمْرٌ أزليٌّ قدَّره الله لنَبيِّه ﷺ وللمهاجرين والأنصارِ الذين اتَّبعُوه في ساعةِ العُسْرةِ، وفي هذا إعلاءٌ لمقامِهم بتوبةِ الله عليهم من غيرِ سابقةِ سُؤالٍ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالتَّوبةِ: ﴿لَّقَد تَّابَ﴾:

للتّوبةِ مُتعلّقاتٌ كثيرةٌ باعتبارِ مَن يتوبُ الله عليه

التَّوبةُ منَ الله رجوعُه بعبْدِه من حالةٍ إلى أرفعَ منها، فقد تكونُ في الأكثرِ رجوعًا من حالةِ طاعةٍ إلى أكملَ منها، وهذه توبتُه في هذه الآيةِ على النَّبيِّ ﷺ، وهذا ظاهرٌ في حالِه ﷺ في هذه الغزوة قبل الخروجِ وبعدَها، لأنَّه رجعَ به من حالِه قبل تحصيلِ الغزوةِ وأَجْرِهَا وتَحَمُّلِ مشاقِّها إلى حالِه بعد ذلك كلِّه، وأمَّا توبتُه على (المهاجرين والأنصار) فحالُها مُعَرَّضةٌ لأنْ تكونَ من تقصيرٍ إلى طاعةٍ وَجِدٍّ في الغزوِ ونُصرةِ الدِّين، وأمَّا توبتُه على الفريق الذي كادَ أن يزيغَ فرجوعٌ من حالةٍ مَحْطُوطةٍ إلى حالِ غفرانٍ ورضا[1].

والمُلاحَظُ على ذلك أنَّ لفْظَ التّوبةِ كان هو المناسبُ لتعدُّدِ مَنْ تابَ اللهُ عليهم واختلافِ التّوبةِ في حقِّ كلٍّ منهم، ولذلك ذهبَ البعضُ إلى أنَّ المرادَ بالتّوبةِ هنا ليس بمعناها المتعارَفِ منَ النّدمِ على الذّنْبِ إلى غيرِ ذلك، بل بمعنَى التّرقّي منَ الكاملِ إلى الأكملِ في حقِّ الخواصِّ، والتّرقّي منَ النّاقصِ إلى الكاملِ في حقِّ العوامِّ، والكاملُ والأكملُ والنّاقصُ أمرٌ إضافيٌّ يتبدّلُ بالنّسبةِ إلى ما فوقَها وتحتَها[2].

دلالةُ إظهارِ الاسمِ الجليلِ في: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾:

تعظيمُ شأنِ هذه التّوبةِ وإعلاءُ مكانتِها

أظهرَ التَّعبيرُ القرآنيُّ الاسمَ الجليلَ في قولِه تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾ تعظيمًا لشأنِ التَّوبةِ وتنويهًا بقَدْرِها، فهي منَ الله الكريمِ ذي الفضلِ العظيمِ، ثمّ إنّ إظهارَ لفْظِ الجلالةِ يُولّدُ في النّفوسِ مهابةَ هذا العظيمِ ويُحفّزُ على التّوبةِ إليه، فضلًا عن إنّ

(1) ابن عطيَّة، المحرَّر الوجيز: 3/92.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 9/355.

إظهارَه مُشعرٌ بأنّه يَتولّى بنفسِه وبحضورِه هذه التّوبةَ وأنّه لا يغفلُ عنها ألبتّةَ.

فائدةُ ذكْرِ النّبيّ ﷺ مع المهاجرين والأنصارِ:

شـرفُ ذِكْـرِ الـصّـحـابـةِ مع النّبيّ ﷺ

ذُكِر النّبيّ ﷺ هُنا في معرض ذكْرِ التّوبةِ وهو صلواتُ الله وسلامُه عليه لم يقعْ منه - وحاشاه - شيءٌ، وإنّما ذُكرَ هنا تكريمًا للمهاجرين والأنصار وتشريفًا لهم، بنظْمِهم مع هذا الكوكبِ الدُّرِّيِّ الوَضيءِ، في ساحةِ رضوانِ الله ومغفرتِه[1]، ولذلك قالوا: إنَّ ذِكْرَه هنا كما ذكرَه تعالى في قولِه: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: 41]، ويكونُ المرادُ بذكْرِ التّوبةِ على المهاجرينَ والأنصارِ[2].

نُكتةُ تقديمِ النّبيّ ﷺ في تَعَلُّقِ فِعْلِ التَّوبَةِ:

التّـنـويـهُ بشأنِ هـذه الـتّـوبَـةِ في تَـرقـيّـةِ تَـرقـيـةِ الـنّـبـيّ ﷺ في سُلَّمِ الكمَالاتِ

افتُتحتِ الآيةُ بتوبةِ الله على نبيِّه ﷺ، لأنَّه كان سببَ توبَتِهم، فذَكَرَهُ معهم ﷺ[3] في تَعَلُّقِ فعْلِ التَّوبةِ بالغَزاةِ بالغُزاةِ، للتَّنويهِ بشأنِ هذه التَّوبةِ إذ قد عَلِمَ المسلمون كُلُّهم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قد غَفَرَ الله له ما تَقَدَّم من ذنبِه وما تأخَّر[4]، فهو النَّبيُّ الذي لا يزالُ عندَه منَ الله خبرٌ عظيمٌ يُرشدُه إلى ما يُؤْذِنُ بتقويةِ حياتِه برفْعِ درجاتِه، فما من مقامٍ يرقِّيه إليه إلا رأى أنَّه لمزيدِ عُلُوِّه وتقرُّبِه للمقامِ الذي كان دونَه، فهو في كلِّ لمحةٍ في ارتقاءٍ من كاملٍ إلى أكملَ[5].

سِرُّ تصديرِ التّوبةِ في الآيةِ بتوبَةِ الله على نبيِّه ﷺ:

الـتّـوبـة من مقامات التّوّابين والأوّابـين والأنـبـيـاء والمرسلين

صُدِّرتِ الآيةُ بتَوبته سبحانه على نبيِّه ﷺ قبْلَ توبَتِه على المهاجرين والأنصار، جبرًا لقلوبِهم، وتنويهًا لشأنِهم بضمِّهم مع المقطوعِ بالرِّضا عنه وبعْثًا للمؤمنين على التّوبةِ، وأنّه ما من مؤمنٍ

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيُّ: 6/909.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/39.
(3) البغوي، معالم التّنزيل: 2/396.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/49.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/35.

إلا وهو مُحتاجٌ إلى التّوبةِ والاستغفارِ[1]، وفيه دلالةٌ على بيانِ منزلةِ التّوبةِ عندَ اللّه وأنّها صفةٌ للتّوّابين والأوّابينَ والأنبياء.

دلالةُ الإتيان بأمْرِ التّوبة في الحديث عن غزوة تبوك:

حَاجةُ المؤمنِ إلى التّـوبـةِ في كـلِّ أحوالِه

قد يُقالُ إنَّ قَبولَ التَّوبةِ دليلُ سبْقِ الذّنْبِ، والنَّبيّ ﷺ معصومٌ، والمهاجرُون والأنصارُ الذين اتَّبعوه تَحمّلُوا أعباءَ ذلك السَّفرِ الطّويلِ فكانَ اللَّائقُ بحالِهم أن يُثْنِيَ عليهم والجوابُ أنَّه ما مِن مؤمنٍ إلا وهو مُحتاجٌ إلى التَّوبةِ والاستغفارِ، لأنَّه لا ينفَكُّ عن هفوةٍ، إمَّا من بابِ الكبائرِ، وإمَّا من بابِ الصَّغائرِ، وإمَّا من بابِ ترْكِ الأَوْلَى والأفضلِ كما أُشيرَ إلى ذلك في حقِّ النَّبيِّ ﷺ بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التَّوبة: 43]، وبالنّسبةِ للمؤمنين فلَعلَّه قد وقعَ في قلوبِهم نوعُ نُفْرَةٍ من تلك السَّفْرةِ لَمَّا عاينُوا المتاعبَ، ولا أقلَّ منَ الوساوسِ والهواجسِ، فأخبرَ اللّه سُبحانَه أنَّ تلك الشَّدائدَ صارت مُكَفِّرَةً لجميعِ الزَّلاتِ التي صدرتْ عنهم في ذلك السَّفرِ الطّويلِ، بل في مُدَّةِ عُمُرِهم كما وقعَ منهم في يومِ أُحدٍ ويومِ حُنَينٍ وصارتْ قائمةً مقامَ التَّوبةِ المقرونةِ بالإخلاصِ[2].

سِرُّ عدَمِ ذِكْرِ فِعْلِ التَّوبةِ مع المهاجرين والأنصار:

لا وَجْهَ للمُقارنةِ بـــين تـــوبـــةِ الصَحابةِ وتوبةِ النّبيِّ ﷺ

ذُكِرَ فعْلُ التّوبةِ مع النّبيِّ ﷺ ولم يُذكرْ مع المهاجرين والأنصار، لاختلاف المرادِ بالتّوبة، فمع الرّسولِ ﷺ يكونُ الأمرُ من باب ترْكِ الأَولَى، وللإشارةِ إلى أنّه ﷺ إمامُ أمّتِه في أمرِ التَّشريعِ لها، وأمّا توبتُه ﷺ على المهاجرين والأنصار، فهي معرَّضةٌ لأن تكونَ من تقصيرٍ إلى طاعةٍ وجِدٍّ في الغزو ونُصرةِ الدِّين، وأمَّا توبتُه على الفريقِ الذي كادَ يَزيغُ، فرُجوعٌ من حالةٍ محطوطةٍ إلى حالِ غُفرانٍ ورضَا.

(1) القاسمي، محاسن التَّأويل: 5 518.
(2) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/540.

وممّا يُذكرُ في سِرِّ ذلك أيضًا أنّ اللّه سُبحانَه ذكرَ توبةَ مَنْ لم يُذنِبْ لِئلَّا يَستوحشَ مَنْ أذنبَ، لأنَّه ذكرَ النّبيَّ ﷺ والمهاجرين والأنصار ولم يُذنبُوا[1].

فمعنَى التّوبةِ على النَّبيِّ والمهاجرين والأنصارِ الذين اتّبعوُه أنَّ اللّه لا يؤاخذُهم بما قد يَحْسَبُون أنَّه يُسبِّبُ مؤاخَذةً[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالنّبيّ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾:

التَّذكيرُ بالنّبوّة مُشْعرٌ برِفْعتِه ﷺ وعُـلّـوِه بينهم

آثرَ التَّعبيرَ بـ(النّبيّ) ﷺ دونَ (الرّسولِ)، لأنَّ المَقامَ هنا يتعلّقُ بشَخصِه ﷺ، فآثرَ ذِكرَ النّبوّة دونَ الرسالةِ، لأنّها متعلّقةٌ بأمْرِ التّشريعاتِ، فالتّذكيرُ بالنّبوّةِ مُشعِرٌ برِفعتِه وعُلّوِه بينهم، لأنّها مُشتقّةٌ من(نبو) الّذي يدلُّ على الرِّفعةِ والظّهورِ.

دلالةُ تخصيصِ المهاجرين والأنصار بالذِّكر والثَّناءِ:

بيانُ كونِهم طليعةَ جيشِ العُسرةِ إقدامًا وبذلًا للأنفُسِ والمالِ في سبيلِ الله

المهاجرون والأنصار: هم مجموعُ أهلِ المدينة، وكان جيشُ العُسرةِ منهم ومن غيرِهم من القبائلِ التي حولَ المدينةِ ومكَّةَ، ولكنَّهم خُصُّوا بالثَّناءِ، لأنَّهم لم يتردّدُوا ولم يتثاقلُوا ولا شَحُّوا بأموالِهم، فكانُوا أُسوةً لِمَن اتَّسَى بهم من غيرِهم منَ القبائلِ[3].

سِرُّ تقديمِ المهاجرين على الأنصارِ في الذِّكر:

بيانُ أفضليَّةِ المهاجرين وفضلِ الهجرةِ على النُّصرةِ

ذَكَرَ رَبُّنا ﷻ المهاجرين بعد ذِكرِ النَّبي ﷺ، لأنَّهم الذين كوّنُوا الخليَّةَ الأُولى للإسلام، ولأنّهم الذين أُخرجُوا من ديارِهم وأموالِهم ابتغاءَ نشْرِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ، واستمساكًا بدينِهم، وكان الأنصارُ الذين آوَوا ونصرُوا، وإذا كان المهاجرون آزرُوا النَّبيَّ صلّى اللّه تعالى عليه وسلّم، وأقامُوا معه الدِّعامةَ الأُولى لبناءِ الإسلام، فالأنصارُ همُ الذين عاونُوا النَّبيَّ ﷺ في إقامةِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ[4].

(1) الثعالبي، الجواهر الحسان: 3/223.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/49.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3466.

والمهاجرون أفضلُ منَ الأنصار كما تَدُلُّ عليه الآثارُ الكثيرةُ الواردةُ في هذا المضمارِ، والمرادُ منه إكرامُ الأنصارِ، فإنَّه لا رُتبةَ بعدَ الهجرةِ أعلَى من نُصرةِ الدِّينِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسميّةِ: ﴿وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾:

اختصاصُ المهاجرين والأنصارِ بهذَيْن الوصفَيْن إلى قيامِ السّاعةِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّةِ في وصْفِ المهاجرين والأنصار دونَ الفعليّةِ للدّلالةِ على ثُبوتِ هذا الوصْفِ واستمرارِه على هذه الفئةِ المؤمنةِ التي هاجرتْ قبْلَ فتحِ مكّةَ، والأنصارِ الذين استقبلُوا رسولَ اللّه ﷺ والمؤمنين الذين هاجرُوا إلى المدينة، فهذا الوصفُ لا ينفكُّ عنهم ولو بعُدَ الزَّمان، لأنّ هذه الآياتِ كانت في أعقابِ غزوةِ تَبوكَ، وهي في العامِ التّاسعِ منَ الهجرة، وكان الجيشُ مُؤلَّفاً مُؤلَّفًا من فئاتٍ كثيرةٍ، فأبقَى القرآنُ على هذا الوصفِ تمييزًا لهم عن غيرهم.

دلالةُ وصْفِ المهاجرين والأنصار بالاتِّبَاعِ:

الاتِّباعُ لرسولِ اللهِ ﷺ سَبَبٌ في مغفرةِ الذُّنوبِ

وَصَفَ النَّظمُ الكريمُ المهاجرين والأنصارَ بـ ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾، للإيماءِ إلى أنَّ لِصلةِ الموصولِ تَسَبُّبًا في هذه المغفرةِ[2]، فهمُ الذين أطاعُوه ولم يتخلَّفُوا عنه[3]، وهذا يُبرزُ ما للاتِّبَاعِ والطَّاعةِ لرسولِ اللّه ﷺ منَ المزيَّةِ في كونِها سببًا لمغفرةِ الذُّنوبِ والثَّناءِ منَ اللّه علَّامِ الغُيوبِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضّميرِ دونَ الإظهارِ في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾:

بيانُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ متبوعٌ وصحابتَه أتباعٌ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالضَّميرِ في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾بدلاً منَ الإظهارِ، للدّلالةِ على خصُوصيته ﷺ في الاتّباع، وأنّه لا مُنازِعَ له في ذلك، لأنّه معلومٌ فلا يحتاجُ إلى بيان، وفيه إيماءٌ بأنَّه ﷺ

(1) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/525.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/50.
(3) الهرري، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 12/70.

متْبوعٌ ونِعْمَ المتْبوع ﷺ، فالشَّرفُ كُلُّ الشرف في اتِّباعه والاقتداءِ به واقتفاءِ آثارِه.

سِرُّ اختيارِ التَّعبيرِ بالاتِّباع في: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾:

شُمولُ اللّفظ لمعنَى الطّاعةِ والانقِيادِ

آثرّ التَّعبيرَ بالاتِّباع دونَ غيرِه، لتعدُّدِ معانيه بين الحقيقةِ والمجازِ، فقوله: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ يجوزُ فيه وجهان: أحدُهما: أنَّه اتِّباعٌ حقيقيٌّ، ويكونُ ﷺ خرجَ أوَّلًا، وتبعَه أصحابُه رضوانُ اللّه تعالى عنهم، وأن يكونَ مجازًا، أي: اتّبعوا أَمْرَهُ ونهيَه[1]، فيكونُ من قَبيلِ مجازِ الحذْفِ، والاِتِّبَاعُ مَجَازِيٌّ[2]، أو من بابِ الاستعارةِ التّصريحيّةِ حيث شبَّه إطاعتَه باتّباعِه بجامعِ الالتزامِ وعدمِ المفارَقةِ.

وأيضًا، لأنَّ الاتِّباعَ يعني الارتسامَ في القولِ والفعلِ، وهو بذلك أبلغُ منَ الطّاعة، لأنّها تندرجُ في الاتِّباعِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ الماضي: ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾ دونَ المضارع:

صِدقُ المهاجِرينَ والأنصَارِ في اتّباعِ النّبيّ ﷺ

آثرَ التَّعبيرَ بالفعْلِ الماضي ﴿ٱتَّبَعُوهُ﴾، للدّلالةِ على تحقُّقِ أمْرِ اتِّباعِهم للنّبيِّ ﷺ ورُسوخه في قلوبِهم، وأنّ ما كان من بابِ الوساوسِ والخواطرِ للشّدّةِ التي مرّوا بها في هذه الغزوةِ لا يُؤثِّرُ في تحقيقِ الاتِّباعِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّةِ: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾:

كمالُ اتّباعِ الصّحابةِ لرسولِ الله ﷺ رُغمَ الأهوالِ والمشَقّاتِ

دلَّ التَّعبيرُ بالظّرفيّةِ على أنّ اتّباعَهم للنبّيّ ﷺ شملَ كلَّ مراحلِ الغزوةِ مع شدّتِها وعُسْرِها في الدّعوةِ إليها وما اكتنَفَها منَ التَّخويف من أمْرِ الرّوم وفي المسيرِ إليها وما تبِعَهُ من عُسْرٍ في الزّادِ والرّاحلةِ، وهذا يدلُّ على أنَّ الاتِّباعَ منَ المهاجرين والأنصارِ للرّسولِ ﷺ تمكّنَ منهم تمكُّنَ المظْروفِ منَ الظّرْفِ.

(1) السَّمين الحلبيُّ، الدُّرُّ المصون: 3/509.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/516، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.

نُكتةُ إضافةِ السَّاعةِ إلى العُسْرَةِ:

عظيمُ ثناءِ الله على الصّحابةِ لِحُسنِ اتِّباعِهم

دلّتِ الإضافةُ في قولِه تعالى: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ على أنّ الزّمنَ الذي وقعتْ فيه غزوةُ تَبوك قد أصابَ المسلمين فيها مَشَقَّةٌ عظيمةٌ من شِدَّة الحَرِّ وقِلَّةِ المركَبِ حتَّى كان العَشَرَةُ يتعاقبُون على بعيرٍ واحدٍ، ومن قِلَّةِ الزَّادِ حتَّى قيلَ إنَّ الرَّجُلَيْنِ كانا يقتسمان تمرةً وربَّما مَصَّها الجماعةُ ليشربُوا عليها الماءَ المُتَغَيِّرَ، فكانت لهمُ العُسرةُ في أربعةِ أشياءَ: عُسْرَةُ النَّفقةِ، والرُّكوبِ، والحَرِّ، والخوفِ[1]، لذلك سُمِّيت (غزوةَ العُسْرة)، وسُمِّيَ مَن جاهد فيها بجيشِ العُسرةِ، وهذه صِفةُ مدحٍ لأصحابِ النَّبي ﷺ باتِّباعِهم إيَّاه في وقت الشِّدَّة، ومع ذلك فقد كانوا مُحتاجين إلى التَّوبةِ، فما ظنُّك بغيرِهم ممَّن لم يُقَاسِ ما قاسَوْه[2].

سِرُّ التَّعبيرِ عنِ الزّمن بالسّاعة: ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾:

إبرازُ أهميّةِ السَّاعةِ التي وقعَ فيها عزمُهم لتَّحمُّلِ المَشَقَّةِ

قولُه تعالى: ﴿فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ يُريدُ: في وقتِ العُسْرَةِ، فأنزلَ السَّاعةَ مَنْزِلةَ المدَّةِ والوقتِ والزَّمن، وإن كان عُرْفُ السَّاعةِ في اللُّغة أنَّه لِما قَلَّ منَ الزَّمن كالقطعةِ منَ النَّهار، فهي هُنا بتَجَوُّزٍ، ويمكنُ أن يريدَ بقولِه في ﴿سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾السَّاعةَ التي وقع فيها عزمُهم وانقيادُهم لتَّحمّل المشقَّة، إذِ السَّفرةُ كُلُّها تبعٌ لِتلك السَّاعةِ وبها وفيها يقعُ الأجرُ على اللّه، وترتبطُ النِّيَّةُ، فمَنِ اعتزمَ على الغزو وهو مُعْسِرٌ فقد اتَّبعَ في ساعةِ العُسرةِ ولو اتَّفق أن يَطرأَ لهم غِنًى في سائرِ سفْرتهم[3].

دلالةُ تَسميةِ الزّمن بالسّاعة:

أزمنةُ الشّدائدِ لا تَطولُ، ولكنَّ الأجْرَ عليهَا عَظِيمٌ

سمَّاها القرآنُ ساعةً تهوينًا لأوقاتِ الكُروب وتَشجيعًا على مواقعةِ المكاره، فإنَّ أمدَها يسيرٌ وأجرَها عظيمٌ، فكانت حالُهم باتِّباعه في

(1) السَّمرقندي، بحر العلوم: 2/93.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 3/525.
(3) ابن عطيَّة، المُحَرّر الوجيز: 3/92.

هذه الغزوةِ أَكْمَلَ من حالِهم قبْلَها[1]، وللدّلالةِ على أنّ هذا الوقتَ مُدّةٌ قليلةٌ بالنّسبةِ إلى وقْتِ السَّعةِ في حياةِ المسلمين، وفيه إشارةٌ إلى توبيخِ هؤلاءِ المتخلِّفين عن هذه الغزوةِ.

سِرُّ إلْحاقِ التّاء بلفظِ ﴿ٱلْعُسْرَةِ﴾:

بيانُ المبالغةِ في الشِّدَّة

العُسْرَة: اسمُ العُسْرِ، زيدتْ فيه التَّاءُ للمبالغةِ وهي الشِّدَّة[2].

سِرُّ التَّعبيرِ عن غزوةِ تَبوكَ بالعُسرة:

اجتمعَ في غزوةِ العُسرةِ أنواعٌ متعدّدة منَ العُسْرِ

آثرَ التَّعبيرَ بالعُسرةِ عن غزوة تَبوكَ، لأنّ العُسرةَ معناها: تعذُّرُ الأمرِ وصعوبتُه، وهذا ظاهرٌ في واقعِ الغزوةِ، حيث حصلتْ عُسرةُ الظّهرِ، فكان العشرةُ منَ المسلمين يتعاقَبُون على بعيرٍ واحدٍ، وعُسرةُ الزّادِ ظاهرةٌ في أنّ التَّمرةَ الواحدةَ يتناوبُ على مصّها الجماعةُ، وعُسرةُ الماء ظاهرةٌ، لأنَّ الغزوةَ كانت في حرٍّ شديدٍ حتّى إنَّ الرّجلَ لَينحرُ بعيرَه فيعصرُ فرثَه ويشربُه[3]، فالتّشبيهُ هنا ليوم تبوكَ بساعة العُسرةِ هو تشبيهٌ بليغٌ حُذفت فيه أداةُ التّشبيه ووجْهُ الشّبه.

فائدةُ ذِكْرِ حرفِ الجَرِّ ﴿مِنۢ﴾:

الإشارةُ إلى التّقارُبِ بين الهَمِّ بالزَّيغ والتّدارك بالتَّوبة

أشار بـ ﴿مِنۢ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ إلى تقارُبٍ كبيرٍ ما بَيْنَ كَيدودةِ الزَّيغ والتَّدارُكِ بالتَّوبة[4].

نُكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿كَادَ﴾ وتحديدِ اسمِها وخبرِها:

عِظَمُ الشّدّةِ والمشقّةِ التي واجهتِ المسلمين في غزوةِ العُسرة

قولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِمَا كَادَ﴾ أي: قرُبَ قُرباً عظيمًا[5]، وهذا بيانٌ لتناهي الشِّدَّة، وبلوغِها الغايةَ القُصوى، أي: تاب سُبحانَه على الذين اتَّبعوا رسولَه منَ المهاجرين والأنصارِ، مِن بعْدِ أن أشرفَ

(1) البقاعيُّ، نظم الدُّرر: 9/36.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/227.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/36.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 9/36.

فريقٌ منهم على المَيلِ عنِ التَّخلّفِ عنِ الخروج إلى غزوة تبوك، لما لابسَها وصاحَبَها من عُسْرٍ وشدَّةٍ وتعبٍ[1].

فهذا الزَّيغُ لم يقعْ ولكنّه قاربَ الوقوعَ، لأنَّ (كادَ) من أفعالِ المقارَبةِ تعملُ في اسمَيْن عمَلَ كان، واسمُها هنا ضميرُ شأنٍ مقدّرٌ، وخبرُها هو جملةُ الخبرِ عن ضميرِ الشّأنِ، وإنَّما جُعِلَ اسمُها هُنا ضميرَ شأنٍ لتهويلِ شأنِهم حين أشرفُوا على الزَّيغِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿يَزِيغُ﴾ من حيثُ مادَّتُها وصِيغَتُها:

الدَّلالةُ على قُربِ مَيْلِ القلبِ فقط دونَ الضَّلالةِ والغوايةِ

آثرَ التَّعبيرَ بالزّيغِ، لأنَّ معناه الميْلُ، والمرادُ: ميلُ القلبِ للتّخلُّفِ والانصرافِ عنِ الغزوة، وذلك للشّدّةِ العظيمةِ التى أصابتْهُم فيها، وذهبَ البعضُ إلى أنَّ الميْلَ هنا حديثُ النّفسِ الذي هو مُقدّمةٌ للعزيمةِ، فلمّا نالتْهم الشّدّةُ وقع ذلك في قلوبِهم، ومع ذلك أدركُوا خطورةَ هذا الأمْرِ اليسيرِ خوفًا من أن يكونَ معصيةً[3].

أثرُ القراءاتِ في قولِه: ﴿يَزِيغُ﴾:

بيْنَ تذكيرِ اللَّفْظِ وتَأْنِيثِ المعْنَى

تعدَّدتِ القراءاتُ في الفعْلِ ﴿يَزِيغُ﴾ بين التّذكيرِ والتّأنيثِ، فبعضُ القُرّاءِ قرأَ بالتّذكيرِ ﴿يَزِيغُ﴾، وبعضُهم قرأَ بالتّأنيث (تزيغ)، فمَن قرأَ بالتَّذكيرِ حملَ على اللّفظِ، ومَنْ قرأَ بالتّأنيثِ فعلَى أنّ لفظَ القلوبِ مؤنّثٌ غيرُ حقيقيٍّ يجوزُ فيه التَّذكيرُ والتّأنيثُ[4].

دلالةُ إسنادِ الزَّيْغِ إلى القُلوبِ: ﴿يَزِيغُ قُلُوبُ﴾:

عِظَمُ الشِّدّةِ حتى كادَ أن يصلَ تأثيرُها إلى القلوبِ

أسنَدَ القُرآنُ الكريمُ الزّيْغَ إلى القلوبِ، للدّلالة على تناهِي الشّدّةِ وبُلوغِها الغايةَ القُصوَى في هذه الغزوةِ، بخلاف غزوةِ الأحزابِ التي نُسبَ الزّيغُ فيها إلى الأبصارِ، فمع ما فيها من شدَّةٍ إلّا أنَّ الزَّيغَ فيها كان للأبصارِ حين تراءَى الفريقانِ في غزوة الأحزابِ،

(1) طنطاوي، الوسيط: 6/418.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 11/50.
(3) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 10/228.
(4) السمين الحلبيّ، الدر المصون: 6/133، والأمر فيه تفصيل لِمَنْ أراد المزيد.

وفي هذا إشارةٌ إلى الفرْقِ بين الغزوتَيْن، فزيغُ القلوبِ أشَدُّ من زَيغِ الأبصارِ، لأنّه ما زاغتِ الأبصارُ إلّا بعدَ زَيْغِ القلوبِ، فإسنادُ الزَّيغِ إلى القلوبِ قد يكونُ على الحقيقةِ، لأنّ القلبَ في الاستعمالِ القرآنيِّ هو مناطُ الأمْرِ ومَلكُ الأعضاء، وقد يكونُ إسنادُ الزّيغِ إلى القلوبِ منَ المجازِ العقليِّ لعلاقةِ المحلّيَّة.

سِرُّ التَّعبيرِ بالفريقِ: ﴿قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾:

قُوّةُ إيمانِ الصّحابةِ وثباتُهم في مواقعِ الجهادِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفريقِ دونَ غيرِه، للإشارةِ إلى أنَّ مُعظمَ المهاجرين والأنصارِ مَضَوا معَه ﷺ إلى تَبوكَ دون أن تُؤثّرَ هذه الشَّدائدُ في قُوّةِ إيمانِهم وصدْقِ يقينِهم، ومَضاءِ عزيمتِهم، وشِدَّةِ إخلاصِهم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾:

بيانُ شُمولِ التَّوبةِ للفريقَيْن تكريمًا لرِفعةِ مَنْ ثَبَتَ وتَثْبيتًا لِمَنْ هَمَّ بالزَّيغِ

عبّرَ القرآنُ الكريمُ بحرفِ العطْفِ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾، وذلك لعطْفِها على جملةِ ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ﴾، لأنّها حرفٌ يُفيدُ التّراخِيَ، ولمَّا أرادَ اللّه أن يُعْلِيَ قدْرَهم عَبَّر عن عظمتِه بـ (ثمَّ) تكريمًا للرّفعةِ، أو على مَنْ كاد يزيغُ بالثَّباتِ على مباعدةِ الزَّلّاتِ وبالتَّرقي في أعالي الدَّرجاتِ إلى المماتِ.

دلالةُ تَكرارِ فعْلِ التَّوبةِ: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾:

بيانُ توفيقِهم للتَّوبةِ بادئَ الأمرِ ثُمَّ قَبولِها منهم بعْدَ ذلك

إن قيل: كيف أعادَ ذِكْرَ التَّوبةِ وقد قال في أوَّلِ الآيةِ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾؟ فالجوابُ: أنّ اللّه تعالى تابَ عليهم أوَّلًا بتوفيقِهم للتَّوبةِ، فلمَّا تابُوا تاب عليهم ثانيًا بقَبولِها منهم، وهو الذي وفَّقَهم لفِعْلِها، وتفضَّل عليهم بقَبولِها[2]، لأنَّ توبةَ العَبدِ إلى اللّهِ مَحفوفةٌ بتَوبةٍ مِنَ اللّهِ عليه قَبْلَها، وتوبةٍ منه بَعْدَها، فتَوبتُه بين تَوبتَيْنِ مِن رَبِّه، سابقةٍ ولاحقةٍ، فإنَّه تاب عليه أوَّلًا إذْنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب

(1) طنطاويّ، الوسيط: 6/418.
(2) ابن القيّم، زاد المعاد: 3/518.

العبدُ، فتاب اللهُ عليه ثانيًا قَبولًا وإثابةً[1]، كما أنَّه ابتدأ بذِكْرِ التَّوبةِ قَبْلَ ذِكْرِ الذَّنْبِ، تَطييبًا لِقُلوبِهم، ثمَّ ذكَرَ الذَّنْبَ، ثمَّ أردَفَه مرَّةً أخرى بذِكْرِ التَّوبةِ، والمقصودُ منه تعظيمُ شأنِهم.

كما أنَّ هذا الترتيبَ يدلُّ على أنَّ المرادَ أنَّه تعالى تابَ عليهم مِنَ الوَساوِسِ التي كانت تقَعُ في قلوبِهم في ساعةِ العُسرةِ، ثُمَّ إنَّه تعالى زادَ عليه فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ فهذه الزِّيادةُ أفادت حصولَ وَساوِسَ قَويَّةٍ، فلا جرَمَ أتبَعَها تعالى بذِكرِ التَّوبةِ مرَّةً أخرى، لئلَّا يبقَى في خاطِرِ أحَدِهم شَكٌّ في كَونِهم مُؤاخَذينَ بتلك الوساوِسِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالإضمَارِ: ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

عبَّرَ القرآنُ الكريمُ بالضَّميرِ في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ دونَ الإظهارِ، لتعدُّدِ المرادِ به، إمَّا أن يعودَ إلى المهاجرين والأنصار، ويكونَ تأكيدًا لقَبول توبةِ اللهِ لهم، وإمَّا أن يعودَ على الذين كادتْ تزيغُ قلوبُهم، وهذا هو الظَّاهرُ، ويكونَ المعنى أنَّ العُسرةَ كانت شديدةً لجُوجًا، حتَّى كادتْ تزيغُ قلوبُ فريقٍ من هؤلاء المهاجرين والأنصار ولكنَّ اللهَ سَلَّم، وارتدّت أفئدتُهم فتابَ اللهُ تعالى عليهم بسببِ تلك الخواطرِ التَّى جاشت، وكادتْ تُضلُّهم وإنَّ ذلك من رأفةِ اللهِ تعالى بهم[3].

شُمولُ توبةِ اللهِ لجميعِ المهاجرين والأنصارِ

بلاغةُ الفضْلِ ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾، لأنه استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ، لأنَّ صِفةَ الرَّأفة والرَّحمةِ من دواعِي التَّوبةِ والعفوِ[4]، فعلَّل لُطفَه بهم بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[5].

تعليلُ ما سبَقَ من ذكْرِ التّوبة مع تأكيدِها

(1) ابن القيم، مدارج السَّالكين: 1/319.
(2) الفخر الرَّازيّ، مفاتيح الغيب: 16/163، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 5/518.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 7/3466.
(4) الألوسي، روح المعاني: 6/38.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/38.

سِرُّ الجمْعِ بين الرّأفةِ والرّحمةِ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

سَعةُ رحمةِ الله وعَفْوِه

جمعَ بينهما، للدّلالةِ على سَعةِ رحمةِ اللّه وعفْوِه بالمؤمنين، ويجوزُ أن يكونَ السّببُ في الجمْعِ أنَّ صفةَ الرّأفةِ عبارةٌ عن إزالةِ الضَّررِ، وأنَّ الرّحمةَ عبارةٌ عنْ إيصالِ المنفعةِ.

فائدةُ تتابُعِ المؤكِّداتِ:

بيانُ أنَّ هذا العفْوَ قد بلغَ الغايةَ القُصوَى منَ القُدرةِ والكمالِ

ذَكَرَ التَّوبةَ في أوَّلِ الآيةِ قبْلَ ذكْرِ الذَّنْبِ، تطْييبًا لقلوبِهم وهو مَحْضُ الفضْلِ منَ اللّه ﷻ، فلمَّا ذَكَرَ الذَّنْبَ أعاد ذِكْرَ التَّوبةِ، والمُرادُ منه قَبولُها[1]، ففي هذا تكريرٌ للتَّوكيدِ كما يُقال: عفا السُّلطانُ عن فلانٍ ثُمَّ عفا عنه، ثمّ أكّدَ هذه المعانيَ بقولِه: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فيدلُّ ذلك على أنَّه عفْوٌ مُتَأكِّدٌ بلغَ الغايةَ القُصوَى منَ القُدرة والكمالِ[2]، قال ابنُ عبّاس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾: يريدُ: ازدادَ عنهم رضًا[3].

نُكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجُملةِ ﴿بِهِمْ﴾:

بيانُ اختصاصِهم بالاهتمامِ والرِّعايةِ والإكرامِ منَ المَلِكِ العلّامِ

قولُه تعالى: ﴿بِهِمْ﴾ يدلُّ على الاهتمامِ بهم في اختصاصِهم بهذه التَّوبةِ العظيمةِ منَ اللّه الرَّؤوفِ الرَّحيمِ، أي: إنَّ ربَّهم بالذين خالطَ قلوبَهم ذلك لما نالَهم في سفرِهم منَ الشِّدّةِ والمشقّةِ، رَؤُوفٌ بهم، رَحِيمٌ أن يُهلكَهم، فينزِعَ منهمُ الإيمانَ بعْدَ ما قد أبْلَوْا في اللّه ما أبْلَوْا مع رسولِه وصبروا على البأساءِ والضَّراءِ[4]، فخصَّهم بهذا الفضلِ، لأنَّهم من خُلَّصِ عبادِه، فرأَفَ بهم ورحِمَهم ودفعَ عنهم ما لا يُطيقون بكَرمِه وحَنانِه، ودفعَ عنهم ما عجزُوا عنه بمنِّه ولُطْفِه وتاب عليهم بفضْلِه وعطْفِه[5].

(1) البغوي، معالم التّنزيل: 2/396.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 11/41.
(3) النَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 3/540.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/39.
(5) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/494.

نُكتةُ تَذْييلِ الآية بهذيْن الاسْمَيْن الجليلَيْن:

المناسبة لمَن ثبتَ منهم ومن كادَ أن يزيغَ

الرَّأفةُ: عَطْفُ العاطفِ على مَنْ يجدُ عندَه مِنَّةً وَصلَةً، فهي رحمةُ ذي الصِّلةِ بالرَّاحم، والرَّحمة تَعُمُّ مَنْ لا صِلةَ له بالرَّاحم، فتكونُ الرَأفةُ حينئذٍ للثَّابتين، والرَّحمةُ لَمَنْ قاربَ الزَّيْغَ، فيصيرُ الثَّابتُ مَرحومًا مرَّتيْن، لأنَّه مَنظورٌ إليه بالصِّفتَيْن[1].

نُكتةُ تقديمِ الرؤوفِ على الرّحيم:

تقديمُ الأبلَغِ والأخصِّ منَ الوصفَيْن

قدّمَ وصْفَ الرّؤوفِ، لأنَّ الرّأفةَ مُبالغةٌ في الرَّحمةِ الخاصّةِ، وهي رفعُ المكروهِ وإزالةُ الضّررِ، والرّحمةُ أعمُّ، وقدّمَ الرّأفةَ أيضًا للإشارةِ إلى المبالغةِ في رحمتِه لخواصِّ عبادِه، و(الرّحيمُ) إشارةٌ إلى العامّةِ.

وممّا يُذكرُ أيضًا أنّ الرَّأفةَ: شِدَّةُ الرَّحمةِ، فقدَّمَ الأبلغَ إذِ المعنَى أنَّه يرحمُهُم أعلَى الرَّحمةِ بإسباغِ جلائلِ النِّعمِ ودفْعِ جلائلِ النِّقَمِ، ويرحمُهُم أيضًا بإسباغِ دقائقِ النِّعَمِ ودفْعِ دقائقِ النِّقَمِ[2].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الزَّيْغُ والمَيْلُ:

الزَّيْغُ: اسْمٌ لِمَيْلٍ مَكْروهٍ، ولا يَكُونُ إلَّا في المَيْلِ عَنِ الحَقِّ، يُقَالُ: فُلانٌ مِنْ أَهْلِ الزَّيْغِ، ويُقالُ: زاغَ عَنِ الحَقِّ، ولا يُقالُ: زاغَ عَنِ البَاطِلِ، قال تَعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: 8] وقال: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: 7]، أَمَّا المَيْلُ: فَهُوَ عَامٌّ في المَحْبوبِ والمَكْروهِ[3]، فَالمَيْلُ أَعَمُّ مِنَ الزَّيْغِ.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 9/38.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/38.
(3) العسكري، الفروق اللّغوية، ص: 269.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14 [إشراف
مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 18 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-15-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 18 : المجلد الثامن عشر، سورة التوبة من الآية 87 إلى سورة يونس الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-15-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0758707 بتاريخ 2024/01/31م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»